

الاثـر الثقافى و الاجتماعى لزوايا توات خلال القرن 11 و 12 هـ / 17 و 18 م (الزوايا البكرية النموذج)

أ.د. مبخوت بودواية

المركز الجامعى النعامـة

أ. سالمى زينب

جامعة تلمسان

الملخص

إقليم توات من الأقاليم الصحراوية التى أدت دورا علميا مميزا فى بلاد المغرب الإسلامى ، وتعتبر الفترة الممتدة من القرن 11 - 12 هـ مرحلة توافد العلماء بالإضافة إلى انتشار الزوايا التى أدت دورا ثقافيا واجتماعيا مهما فى المنطقة.

Résumé :

La zone « TOUAT » est considérée comme l'une des régions sahariennes qui a contribué grandement à l'épanouissement de la culture arabo-musulmane.

En particuliers, la période qui s'étend du huitième (11) au dixième (12) siècle de l'hégire, s'est caractérisé par une affluence scientifique des Oulamas et ce en plus

La propagation des angles qui ont joué un rôle culturel et social important dans la région.

تمهيد :

شكل الاقليم التواتى على امتداد تاريخه الطويل والزاهر بالاحداث الثقافية احد اهم مناطق ومراكز الزوايا والمدارس القرانية ، لدرجة ان اصبح اسمها مرادف لاسم توات ويرجع الانتشار الهائل لهاته الزوايا الى الموقع الاستراتيجى الهام لهذا الاقليم باعتباره منطقة ربط بين بلاد المغرب وافريقيا جنوب الصحراء مما سهل توافد العديد من العلماء ومن ثم ازدهار الحياة الثقافية ، ومن بين الزوايا التى عرفت ذيوعا وانتشارا خلال القرن 12 هـ / 18 م زاوية الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم التى اسسها بالقرب من تمنطيط ، وتعود الى مؤسسها الشيخ "سيد البكري

بن عبد الكريم" وقد حملت الزاوية على عاتقها مسؤولية تدريس العلوم وذلك بتنويع نشاطها التعليمي القائم على مراحل تدريجية تعددت وظائفها ومهامها بتعدد مناهجها التعليمية، كما اهتمت بالجانب الاجتماعي سواء على مستوى نشاطاتها اليومية او في مناسباتها الخاصة او الدينية.

الاثـر الثقافـي للزاوية :

اهتمت الزاوية البكرية بالنشاط التعليمي فاتبعت الطريقة التي اطلق عليها اسم طريقة المغاربة كما قال ابن خلدون والتي تبدأ بتعليم القرآن والاعتناء به عناية خاصة.¹

1- مرحلة التعليم : يمر المتعلم في الزاوية بعدة مراحل من اجل الوصول الى المرحلة النهائية ليتخرج منها :

المرحلة الاولى : هي مرحلة الكتاب او ما يسمى اقريش او المحضرة. يلتحق بها التلميذ عند بلوغه سن الخامسة وذلك بعد قراءة الفاتحة بين الشيخ وولي التلميذ

²، ويمر الدارس في هذه المرحلة بثلاث مراحل :

ا- مرحلة المحاكاة :

يكتب فيها المعلم للتلميذ على لوحه بالقلم و الصمغ ويطلب منه تتبع كتابته ليتعلم كيفية تشكيل الحروف كما يتعود على امساك القلم باصابعه حتى يسهل عليه الكتابة فيما بعد.

ب- مرحلة النقل الايضاحي :

يتعلم فيها كيف ينقل الحروف او الايات ، حيث ياتي المعلم بطبق مبسوط مملوء بالتراب ويجلس التلميذ الى جانبه ثم يكتب له على الطبق ما يريد من الايات لينقلها على لوحه وذلك لانه لم تكن هناك سبورات او اقلام رصاص .

ج- مرحلة الفتوى (الاملاء):

يقوم المعلم في هذه الفترة باملاء الايات على التلميذ ليكتبها على لوحه وذلك بعدما يجمع مجموعة من التلاميذ في حلقة واحدة ليملي على كل واحد منهم من الوقفة التي يقف فيها و الغرض من ذلك هو تعليم التلميذ كيفية ضبط الرسم القرآني وتحسين طريقة الكتابة وتعلم قواعد اللغة وبعد ان ينهي الكتابة يقوم بتشكيلها ثم اخذها للمعلم ليصححها معه ويراجع اخطائها ومن ثم يقوم بقراءة لوحه وحفظه³.

ومن العادات السائدة في هذه المرحلة البدء بقصار السور وذلك مراعاة لذهنية التلميذ والذي يكون في سن صغير ولايستطيع استيعاب طولها الى جانب ان اغلب السور مكية، وكما هو معلوم ان السور المكية جاءت لترسيخ العقيدة، كما تشتمل على قصص يستطيع التلميذ استيعابها كسورة الفيل و المسد...، ولكونه مأمور للصلاة لسبع- الطفل- حفظه قصار السور يساعده على قراءتها في الصلاة...⁴، كما يقوم المعلم بكتابة المتون للتلميذ في اسفل اللوح ليحفظها.

ومن العادات ايضا تخصيص والد الطفل عند دخوله للكتاب حصص من التمر و القمح سنويا للشيخ نظير تدريسه لابنه، كما يحصل المعلم على ما يسمى "التحريرة" والتي ياخذها من الصبيان عندما يبلغ احدهم سورة "ياسين" او "تبارك" او الكهف او ال عمران....، والتي قد تكون عادة من نقود او خيل..⁵ المرحلة الثانية: بعدما يتم الطالب حفظ القرآن ينتقل الى مرحلة ثانية تتم في الزاوية ويتولى هذه المهمة فقيه الزاوية، يتلقى الطالب كافة العلوم، ويتبع الطلبة عدة طرق للتلقي منها، قراءة الفهم* او قراءة البحث او قراءة تحقيق او قراءة بحث و تحقيق.

يناقش الشيخ في هذه المرحلة المسائل الفقهية مع طلبته، كما يقرأون ما حفظوه من المتون التي حددت لهم، وان لم يـقم اي طالب بالحفظ يلومه الشيخ ويؤنبه⁶.

ويقوم الشيخ في هذه المرحلة بتدريس مختلف المواد التي اجيز فيها كما يقوم بتدريس البعض من المواد التي اطلع عليها، وبذلك فان الزاوية جامعة تقدم للطالب معلومات عامة.

وتجدر الاشارة الى ان الطالب في هذه المرحلة لا يقوم بدراسة العلوم الشرعية واللغوية فقط، بل يحفظ كل يوم جزء من القرآن بدءا من البقرة الى سورة الناس حتى لا ينساه⁷.

- المناهج والوسائل المتبعة :

لقد اولى القائمون على الزوايا بشكل عام، ومن بينهم زاوية سيدي البكري عناية خاصة لجانب الاخلاق والتربية الحسنة لذلك اعتمدوا على اساليب و مناهج توصل الى الهدف من اجل ان يتخرج الطالب على جانب كبير من الاخلاق والعلم ومن تم تتم المحافظة على صلاح المجتمع وصيانه من الانحرافات.

ففي القرآن كما ذكرنا آنفا اعتمدت الطريقة المغربية حيث تفتح الزاوية ابوابها من صلاة الصبح الى ما قبل الزوال ثم تغلق للاستراحة ثم تفتح بعد صلاة الظهر الى اصفرار الشمس، اما بعد المغرب فيقرؤون الحزب اليومي الى غاية صلاة العشاء وفي كل فترة من الفترتين الصباحية او المسائية يقومون بعمل ما من حفظ وكتابة.

اما فيما يخص تدريس الحديث النبوي فمنهجيته تختلف عن تعليم القرآن و الفقه والنحو، فعادة ماتكون قراءة الحديث في شعبان الى ذي الحجة وقد تمتد

الى اكثر من ذلك للعامة وليس الطلاب فقط.⁸ واشهر كتب التفسير هي :
صحيح البخاري، موطا الامام مالك، والشفة للقاضي عياض، الفية
السيوطي...واكبر دليل على اهتمام الزاوية البكرية بالحديث هو ما يقيمونه من
قراءة لصحيح البخاري ومسلم خاصة في رمضان.

ويرجح ان اول من قرا صحيح البخاري في رمضان بتمنيط الشيخ "سيد
ميمون بن عمر بن محمد الامريني" نهاية القرن 9هـ/15م⁹.

اما فيما يخص تدريس الفقه: فبعد تمكنه من الاساسيات في المرحلة الاولى،
ينتقل الى الكتب الفقهية من اصغرها الى اكبرها "كالاخضري" مثلاً، وبعد
معرفته بامور الصلاة واحكام الطهارة والفرائض والسنن ياخذ فقه السهو
واحكامه من خلال "العبري" لمحمد بن اب الزمري ثم المرشد المعين الذي افه
ابن عاشر(ت1040هـ) ...¹⁰.

- دور الزاوية البكرية في الحياة الثقافية من خلال مؤلفات "الشيخ سيد
البكري بن عبد الرحمان":

عاصر الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمان القرن 12هـ/18م، هذا القرن
الذي عرف بالعصر الذهبي في توات خاصة في الحياة الثقافية والعلمية فقد
كان لتواجد العلماء في مختلف الاختصاصات اثره الايجابي في بعث الحركة
العلمية بالمنطقة على الرغم من بعدها عن العمران الحضاري¹¹، ويعزى
ذلك الى عدة عوامل منها:

- توافد عدد كبير من العلماء اليها من كافة الاقطار كالمغرب وحواضر
شمال افريقيا الذين ساهموا في نهضة البلاد.
- استقرار الوضع السياسي بتوات.

- الموقع الاستراتيجي الهام حيث كان طريقا للقوافل التجارية مما سمح بتبادل الافكار وتوفر مادة العلم من صمغ وورق.
- سفر الكثير من رجال توات الى المدن و الحواضر سواء المشرقية او المغربية.

أ- نشأته :

يرتفع نسب الشيخ الى سيدي "محمد بن يوسف الملياني" ابن الشيخ سيدي عبد الرحمان ابن الطيب ابن احمد ابن محمد الطيب ابن عومر بن معروف ابن يوسف التتلائي¹² ، ولد بالزاوية البكرية 1264هـ / 1845م ، حفظ القرآن في سن مبكرة من عمره ، لازم خاله "الحسن بن سعيد" حتى تخرج على يديه في علوم العربية و الاداب واللغة والتفسير والفقه و الحديث وغير ذلك من العلوم¹³.

تخرج على يد الشيخ اعلام كثر من بينهم سيد عبد العزيز بن الصافي ، والشيخ البكري بن محمد الصالح ، الشيخ محمد بن عبد الوافي البكري...¹⁴ . عرف بمحنته في الاداب وبراعته في مجال العلوم الدينية و الدنيوية حيث كان هو المفتي في بعض الحالات والقاضي في فض بعض النزاعات والشاعر ايضا في المناسبات...، قال عنه الشيخ عبد الرحمان السكوتي "القبلاوي" ان سر هذا الرجل في قلمه".

كان للشيخ عدة مؤلفات في الفقه والنحو والادب والحكمة والميراث و العقائد...الا ان اغلبها على نمط شعري ، فمثلا في مجال العلوم الدينية له مؤلفات عديدة اشهرها ارجوزة الاوليات المعروفة بالارجوزة البكرية والتي افتتحها بقوله :

من باسم الاله ييتــدي وبالمحامد له في الابد
محمد نجيل بن عبد الرحمان لقبه البكري مولى الاوزان¹⁵.

وله مؤلف في ذكر الخيول واوصافها¹⁶ وكتاب النبذة في علم الميراث.
اما في مجال الادب فقد تنوعت مؤلفاته بين الشعر والنثر، حيث الف عدة
مؤلفات اشهرها الديوان، الى جانب الرسائل التي راسل بها العلماء وبعض
الشخصيات البارزة والتي تنوعت مواضيعها بين امور الدين والدنيا كالفتوى
والنصائح والعتاب وحتى الامور الطبية كالادوية¹⁷.
ومن اهم المناظرات العلمية التي اشتهر بها مع الشيخ "محمد محمود
الشنقيطي".

لقد انجبت الزاوية البكرية هذا العالم الجليل الذي شهد له التاريخ بالعلم
والصلاح وانه كان منارة في توات خلف تراث حضاري ضخم ومتنوع.
- الاثر الاجتماعي للزاوية البكرية:

لقد تعددت النشاطات اليومية التي يقوم بها القائمون على الزاوية منها:
- اكرام الضيوف: كانت الزاوية تستقبل الضيوف والزوار وتوفر لهم
الاكل والايواء طيلة الاقامة وكانت هذه المهمة في البداية يقوم بها شيخ الزاوية
وابنائهم لانهم يسكنون منزل واحد في القصر، وعندما اتسعت الزاوية وكثر
سكانها اصبحت هذه المهمة بالتناوب¹⁸، حيث يقسم الشهر الى ايام لكل
واحد يومه في اطعام الضيوف.

كما اقاموا في الفترات الاخيرة ما يسمى بالكيس، حيث يقدم كل رب
عائلة من ابناء العائلة البكرية (ابناء واحفاد الشيخ) جزء من محصوله الشتوي
من القمح والشعير والتمر ويجمع الكل ويترك عند شخص امين وذلك مخافة
ان يقصر اي شخص في القيام بالواجب مع الضيوف. كانت الزاوية تستقبل

الفقراء والمساكين حتى أصبحت توصف بأنها من الزوايا التي انشأت للاطعام¹⁹.

كان يسعى شيوخ الزاوية الى تحصين الطلبة من المؤثرات التي تؤدي الى الانحراف عن طريق التوجيهات الشرعية، وملئ اوقات فراغهم بما ينفعهم، وتدرّس بعض المتون التي تحث على الاداب "كهدية الالباب في جواهر الاداب" وغيرها، وهذا ما ينعكس بالايجاب على سلوكات المتخرجين من الزاوية حتى في تعاملهم مع العامة²⁰.

كما ساهمت في تنمية روح التعاون خاصة في مواسم الزراعة والحصاد...حيث يتعاون الناس على انجاز المهام بالتناوب ويطلق على هذا العمل بالتوزيع، هذه الاخيرة التي كانت تعتمد في الافراح ايضا.

ويتزايد نشاط الزاوية في رمضان بالاكثر من تلاوة القران و السماع الى دروس الوعظ التي تلقن في المساجد، كما يقوم الناس بارسال اللبن والتمر لافطار الصائمين²¹.

وكان شيوخ الزاوية يستغلون مناسبة العيدين لاقامة الصلح بين المتخاصمين ومن نماذج الصلح التي حدثت في عهد الشيخ سيد محمد بن البكري بين قبائل توات وجماعات من ذوي منيع²².

الخاتمة:

لقد ادت الزاوية البكرية دورا هاما في الحياة الاجتماعية والثقافية باعتبارها مؤسسة علمية ورافد من روافد الحضارة العربية الاسلامية الى افريقيا جنوب الصحراء، اهتمت بخدمة الفقراء و ابناء السبيل وفض النزاعات والفتن و احياء المناسبات الخاصة والعامة، وخلف شيوخها وعلمائها ارثا علميا متنوعا

لا زالت اثاره خالدة الى الان، ان حرصها على تربية النشأ تربية حسنة ومتكاملة جعلها في مصاف الزوايا المؤثرة بالمنطقة وماجاورها.

الهوامش:

¹ - ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 2003، ص102.

² - محمد نسيب، زوايا العلم والقران بالجزائر، الجزائر، دار الفكر، 1989، ص108.

³ - مبروك مقدم، طرق التدريس، الملتقى الثاني للبحث الاثري والدراسات التاريخية: وزارة الثقافة والاتصال، جوان، 1994، ص76. ينظر، محمد الصالح حوتيه، توات والازواد، ج1، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2007. ينظر: الحاج احمد الصديق، التاريخ الثقافي لاقليم توات بين ق11 و12هـ، ادرار، 2003، ص47

⁴ - عبد القادر باخو، طريقة تعليم وتحفيظ القرآن بولاية ادرار، رسالة المسجد، جزائر، 2004، ص68.

⁵ - وليد بن الوليد، تاريخ توات، مخطوطة بخزانة أبا عبدالله بن الوليد عبد القادر، ص128 - 129.

* يقوم الطالب بدراسة المسائل ويحاول فهمها.

⁶ - عبد الحميد بكري، سلسلة علماء توات، ج2، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2008، ص26.

⁷ - محمد الصالح حوتيه، المرجع السابق، ص250. ينظر: ابو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الاسلامي، ط1، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 2003، ص18.

⁸ - محمد بلعالم، الرحلة العلية لمنطقة توات، ج1، الجزائر، دار هومه، 2002، ص272.

⁹ - جعفري مبارك، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 هـ، ط1، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص125. ينظر: محمد بكر اوي،

المراجع المعتمدة في التدريس بالزوايا البكرية (الندوة الرابعة حول مآثر العلماء البكرين)،
10 شوال 1429 هـ، ص 10.

¹⁰ - محمد بكراوي، المرجع السابق، ص 11.

¹¹ - جعفري احمد ابا الصافي، رجالات في الذاكرة "محمد ابن ابا المزمري واثره"، ط 1،
الجزائر، دار الكتاب العربي، ص 32.

¹² - ترجمة الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمان، مخطوطة بخط سي الطيب الشاري،
خزانة كوسام.

¹³ - نفسه.

¹⁴ - محمد السالم بن عبد الكريم، شفاء القلب العليل، تحقيق منظومة الشيخ البكري على
اوصاف الخيل لمحمد البكري بن عبد الرحمان، الجزائر، دار الكتاب
العربي، 2006، ص 36.

¹⁵ - سيدي البكري بن عبد الرحمان، ارجوزة الاوليات، مخطوط بالخزانة البكرية،
تنطيط.

¹⁶ - سيد البكري بن عبد الرحمان، ديوان الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمان، مخطوط
بخزانة تنطيط.

¹⁷ - سيدي البكري بن عبد الرحمان، الديوان.

¹⁸ - عبد الحميد بكري، سلسلة علماء، ج 2، ص 29.

¹⁹ - بلعالم محمد باي، الزوايا مصدر اشعاع روحي وثقافي، الملتقى الوطني الاول
للزوايا، ادرار، 2000، ص 12.

²⁰ - بلعالم محمد باي، الزوايا مصدر اشعاع روحي وثقافي، ص 14.

²¹ - بلعالم محمد باي، بعض العوائد في المناسبات الدينية، اعمال المهرجان الثقافي الاول
للتعريف بتاريخ منطقة توات بادرار، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون، 1988، ص 59.

²² - محمد بن عبد الكريم البكرائي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط
بخزانة أبناء عبد الكبير، لمطارفة، أدرار، ص 11.

المخطوطات :

- البكراوي محمد بن عبد الكريم، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة أبناء عبد الكبير، لمطارفة، أدرار.
- ترجمة الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمان، مخطوطة بخط سي الطيب الشاري، خزانة كوسام .
- سيدي البكري بن عبد الرحمان، ارجوزة الاوليات، مخطوط بالخزانة البكرية، تمنطيط.
- سيد البكري بن عبد الرحمان، ديوان الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمان، مخطوط بخزانة تمنطيط .
- وليد بن الوليد، تاريخ توات، مخطوطة بخزانة أبا عبدالله بن الوليد عبد القادر، ادرار.

المصادر والمراجع :

- محمد السالم بن عبد الكريم، شفاء القلب العليل، تحقيق منظومة الشيخ البكري على اوصاف الخيل لمحمد البكري بن عبد الرحمان، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2006.
- محمد بلعالم، الرحلة العلية لمنطقة توات، ج1، الجزائر، دار هومه، 2002.
- جعفري مبارك' العلاقات التفافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 ه' ط1' دار السبيل للنشر والتوزيع' الجزائر' 2009.

- بلعالم محمد باي، بعض العوائد في المناسبات الدينية، اعمال
المهرجان الثقافي الاول للتعريف بتاريخ منطقة توات بادرار، الجزائر،
المؤسسة الوطنية للفنون، 1988.
- بلعالم محمد باي، الزوايا مصدر اشعاع روحي وثقافي، الملتقى الوطني
الاول للزوايا، ادرار، 2000.
- جعفري احمد ابا الصافي، رجالات في الذاكرة"محمد ابن ابا المزمري
واثره"، ط1، الجزائر، دار الكتاب العربي .
- مبروك مقدم، طرق التدريس، الملتقى الثاني للبحث الاثري
والدراسات التاريخية: وزارة الثقافة والاتصال، جوان، 1994.
- محمد الصالح حوته، توات والازواد، ج1، الجزائر، دار الكتاب
العربي، 2007.
- الحاج احمد الصديق، التاريخ الثقافي لاقليم توات بين
ق11 و12هـ، ادرار، 2003.
- ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، بيروت، دار الغرب
الاسلامي، 2003.
- محمد نسيب، زوايا العلم والقران بالجزائر، الجزائر، دار
الفكر، 1989.